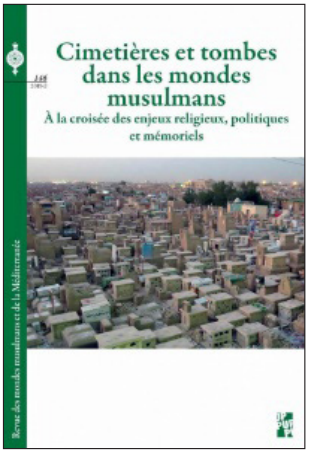

Sepideh Parsapajouh et Mathieu Terrier (Sous la direction de.).- *Cimetières et tombes dans les mondes musulmans*. A la croisée des enjeux religieux, politiques et mémoriels. *Revue des mondes musulmans et de la Méditerranée*, (146), décembre 2019. https://doi.org/10.4000/remmm.12590.

سيبديه بارسابَّاجوه وماتيو تيريي (تحت إشراف).- الرهانات الدينية والسياسية والتخليدية للمقابر والقبور في العوالم الإسلامية. مجلة العوالم الإسلامية والبحر الأبيض المتوسط (دجنبر 2019).

توزعت محاور العدد 146 لشهر دجنبر 2019 من **مجلة العوالم الإسلامية والبحر الأبيض المتوسط** بين أربعة أقسام، ركز الأول منها بعنوان "المعتقدات والممارسات الجنائزية بين الأرثودوكسية والابتداعية" على البعد الديني للفعل الجنائزي باعتباره تمثلات ومشاعر وممارسات، فوقف بإسهاب عند المعتقدات والتصورات الشيعية بناءً على قاعدة التعارض بين الحنبلية الجديدة وبين المذهب الإصلاحي الإسلامي. وانصب القسم الثاني على "التوترات بين المعتقدات والحكم والذاكرة: الإسلام في السياق الاشتراكي،" وتحديدا على الرهانات الدينية والسياسية والتذكارية للفعل الجنائزي في المجتمعات الإسلامية المنضوية تحت لواء المجالين السوفياتي والصيني، أي في أنظمة تراوحت مواقفها من الدين، وبالضبط من الإسلام بين المعاداة واللامبالاة والرغبة في الاحتواء، حيث تبدو المجالات والممارسات الجنائزية أماكن للمقاومة ولمحاولة إعادة بناء الهوية. أما القسم الثالث فتناول "إعادة توطين الموت: مقابر المسلمين في بلاد المهجر" في ظل التطورات الكبرى داخل المجتمعات الإسلامية المعاصرة ومن خلال الوقوف على الأبعاد الاقتصادية والرمزية للعمليات المعقدة لاختيار مواضع الدفن، ولممارسة طقوسها الإسلامية في وضعيات الاغتراب. وناقش القسم الرابع في الأخير موضوع "التوترات بين المعتقدات والحكم والذاكرة: مقابر الشيعة اليوم" من خلال نموذجين متناقضين لمقابر وأضرحة داخل العالم الشيعي، ويتعلق الأمر ببادية جنوب لبنان وبالعاصمة طهران، واللذان يبينان كيفية التوظيف السياسي المثير لمفهوم الاستشهاد في المجال الجنائزي والممارسات الطقوسية ذات الصلة، عقب نزاعات العقود الأخيرة.

وتتمحور إشكالية هذا الملف حول درجات التفاعل المستمر ومستوياته بين السياقات الدينية والسياسية والذاكرتية. كيف يؤسس التنظيم المادي للمقبرة وتقنين الممارسات الجنائزية والمعيش الواعي لزوار المقابر، للنظرة إلى العالم المحسوس والعالم الآخر؟ لقد تم إعطاء الأولوية،

في هذا الصدد، للمعتقدات والتمثلات ذات الصلة بمصير الأموات، وللعلاقات بين الأموات والأحياء، ولمواقف الأحياء من الأموات. كما تمت المواءمة بين أرثودوكسية الإسلام وبين واقع الممارسات والخطابات. كيف تؤثر الديناميات المجتمعية والسياسية والحضرية المعاصرة على المعتقدات والممارسات الجنائزية؟ وكيف تساهم هذه الأخيرة في بناء ذواكر وهويات مختلف المجموعات؟ سعى هذا الملف إلى دراسة ثلاث ظواهر ذات أهمية بالغة: المجتمعات الإسلامية الخاضعة للأنظمة الاشتراكية المعادية للتقاليد الدينية؛ استقرار الجاليات الإسلامية خارج دار الإسلام وما واكبه من عولمة هذا الدين؛ ومظاهر التسييس الجديد للإسلام في الفضاء الشيعي منذ السبعينيات. إذن لماذا تخصيص هذا العدد لموضوع المقابر والقبور في العوالم الإسلامية؟

لا غرو أن موقف الإنسان من الموت شهد تطورا عميقا في كل المجتمعات الإنسانية، إذ تمظهرت ممارسات عمليات الدفن بكل مكان في شكل واقع اجتماعي شمولي، بالنظر لكونها تحرك المجتمع ومؤسساته برمتها، وتعبئ كل أبعاده الثقافية والاقتصادية والتكنولوجية والسياسية والفنية والدينية، وتشد من عضد أفراد المجتمع، وتعكس بجلاء وتيرة الأشكال المتغيرة للحياة اليومية وللذاكرة والوعي الجمعيين. والواقع أن المقابر والقبور شكلت منذ زمن بعيد قضايا ذات أولوية للعلوم الإنسانية والاجتماعية والتاريخية. وتقف الأنثروبولوجيا في هذا الحقل البحثي على الثوابت المتعلقة بالشواهد، وعلى الخصوصيات المتصلة بأشكال الممارسات الطقوسية والدينية. كما يجد فيها الأركيولوجي والمؤرخ وسيلة لتجميع المصادر المادية الخاصة بالتطور السياسي والاقتصادي والأخلاقي للمجتمعات. ويمكن للسوسيولوجي والسياسي أن يرى من زاويتها مختلف أوجه التبادلات الاقتصادية وعلاقات الحكم المتداخلة. أما الجغرافي فيحلل من خلالها التحولات والتأقلمات مع المجال وتحديدا ما يهم المدينة الحديثة.

تعد المقبرة، من زاوية التاريخ الثقافي، وبامتياز، إحدى الأمكنة التي تبنى في فضاءاتها الذاكرة الجمعية للأفراد والذاكرة الثقافية للمجتمع. إنها المجال الذي تتمأسس فيه الذاكرة عبر مفارقة التخليد والنسيان. في حين يدخل الفعل الجنائزي، من منظور العلوم الدينية، في إطار الفكر والممارسة الدينيتين، إذ تشهد المقابر والقبور على البعد الإيماني والشرعي-القانوني للدين، لأنها تركز على الممارسات الطقوسية لمجتمعات العالم تجاه المعتقدات ذات الصلة بمصير الروح في الآخرة، وتعتبر مكانا لتشكل وتطبيق مفاهيم الأرثودوكسية والأورثوبراكسية (Orthopraxie) في علاقتها مع غريميها الابتداعية والهرطقية. وإجمالا، لا يمكن الفصل داخل المقابر وحول القبور بين المادي والرمزي، وبين السياسي والروحي، وهو الأمر الذي يجعل العلوم الإنسانية المختلفة المهتمة بهذا النوع من المواضيع، مجبرة على تجاوز حدودها بغية الانفتاح على مقاربات متعددة قمينة بالكشف عن أبعاد الفعل الجنائزي بكل تجلياته الظاهرة والمستترة.

وتعتبر المجتمعات الإسلامية في هذا الصدد النموذج الأمثل، بالنظر إلى أن الإسلام، بالرغم من تعدد مذاهبه، يقر بأن الحياة الدنيا ما هي في المحصلة النهائية إلا استعدادا للآخرة، ومن ثم يضفى على القبر مجموعة من الدلالات الشرعية والأخلاقية والأخروية، وتحتل المقبرة مكانة هامة باعتبارها مجالا للتواصل وللتآلف الاجتماعيين بمشاركة النساء. لقد كان مجتمع ما قبل الإسلام الذي ضم بين طياته البدو والحضر، متعددا من حيث الأديان والثقافة الجنائزية كما تبين مقبرة المعلا أو أهل مكة. أما مقبرة جنة البقيع بالمدينة المنورة، فتشكل أول مكان للدفن حدده الرسول (ص)، وتحيل تسميته على الفردوس. ودأب المسلمون في البداية على دفن موتاهم، باستثناء علية القوم، خارج الحواضر، ثم بجانب أبواب المدن، وليس بالقرب من أماكن العبادة كما هو الحال في المسيحية. غير أن توسع المدن في العصرين الوسيط والحديث، وتزايد أعداد الموتى بفعل الكوارث المختلفة أسفر عن تجاور بين الأحياء والأموات، حيث أضحت المقبرة وسيلة للتعبير عن الممارسات الاجتماعية المتجذرة في حياة الناس. بل بلغ الأمر في العالم الشيعي أن أنشئت مدن بأكملها، إما حول قبر أو قبور مقدسة، كما هو حال النجف وكربلاء ومشهد وقم، أو بجوار ولي صوفي كما هو شأن قونية بتركيا وماهان بإيران.

لقد خصصت الكثير من الدراسات التاريخية لأضرحة الأولياء والمتصوفة، وللمدافن المشتركة في الشرق الأوسط في العالمين السني والشيعي. لكن إلى اليوم، لم تنجز دراسة متعددة التخصصات والأبعاد حول المقابر والقبور في العوالم الإسلامية المعاصرة تسبر أغوار مختلف أصناف الموتى من قبيل الأولياء والشهداء والأبطال وعامة الناس...على أساس المقارنة بين الفضاءات الجغرافية والثقافية، وبين الأوساط الحضرية والقروية. وباختصار، إنها دراسة تغيت، عبر تتبع الديناميات المعاصرة، محاولة تشخيص ركائز المعتقدات والتمثلات لدى المسلمين في هذا الباب.

وعليه يروم هذا الملف الذي يعد في الأصل حصيلة لورشة العمل "المقابر في مفترق السياسات: المجال، الدولة، الدين،" تقديم نظرة، تظل جزئية بالتأكيد، للفعل الجنائزي اليوم، تجمع بين مقاربات الإسلامولوجيا والعلوم الاجتماعية والتاريخ الثقافي. ويبدو أنه يمكن التركيز على ثلاث وجهات نظر غير قابلة للفصل؛ تتعلق الأولى برصد الفعل الديني المؤصل للجنازة، وذلك لتسليط الضوء على مفهوم العالم والقدر الفردي، وما يرتبط بهما من معايير وقيم تتباين بتباين السياقات. وتتصل الثانية بتحليل الرهانات السياسية المرتبطة بالدفن وبتسيير المقابر، وذلك سعيا لفهم الديناميات التاريخية للفعل الجنائزي عبر تجاوز الصورة التي تحملها كل من الشريعة والشعور الديني عن ثقافة الموت. أما الأخيرة فتحيل على مفهوم الذاكرة الثقافية، وعلى الرهانات الذاكراتية، حيث يمثل النظام الديني باعتباره

مصدرا للإيمان وللتشريع، حاضنة لجميع الممارسات ولكل أماكن الدفن. وتبدو المقابر والقبور في هذا السياق، كواجهة بين عالم الأحياء وعالم الأموات محكومة بالقواعد الإلهية الملزمة. وإذا كان القرآن يربط بين الدفن وأفق البعث يوم القيامة، فإن المصادر المكتوبة، من قبيل الأحاديث النبوية، تلتزم الصمت مثلا حيال التواصل بين الأموات والأحياء. وقد تكفل الثيولوجيون والفلاسفة وفقهاء القانون والأخلاقيون من مختلف التيارات بتبرير قواعد الإيمان وتقنين الممارسات؛ فمنذ ابن تيمية، مرورا بالوهابية وبالمذهب السني الحنبلي الجديد، تمت بشدة إدانة إنشاء الأضرحة وزيارة القبور الممارسة من طرف الشيعة والمتصوفة. وترجمت هذه المواقف إلى أفعال عبر التدمير المكثف، كما حدث مع الوهابيين بمقبرة البقيع بالمدينة المنورة، ما بين 1806و 1925. وعلى الرغم من سعي هذا التيار الدعوي لتمثيل الأرثودوكسية والأورثوبراكسية، فإن التشبث بتقديس الأولياء لا زال حاضرا في فضاءات دار الإسلام، باستثناء المملكة العربية السعودية.

لا مشاحة أن المقابر والقبور مثلت منذ العهود الأولى للإسلام رهانات سياسية عظمى سواء بالنسبة للقوى الحاكمة أو للأقليات الخاضعة أو المتمردة. وخلال القرن العشرين، انقسمت المجتمعات الإسلامية إلى دول مهتمة بالحداثة، وأخرى اشتراكية لها موقف من الدين، وثالثة تتخذ من الإسلام مرجعية تقليدية أو إصلاحية لها. وشكل السعي للتحكم في التقاليد الجنائزية والتشبث بالأولياء والصالحين مجالا لمواقف سياسية مختلفة تأرجحت بين القمع والباتريمونيالية مرورا بالبيروقراطية. ففي البلدان ذات الأنظمة المنبعثة من الثورة أو من الحرب، حل جزئيا التقديس السياسي للشهداء بالعواصم محل تقديس الأولياء. ومع تنامي النزاعات ذات النعرات الطائفية، تحولت المقابر إلى ساحة للرموز السياسية، بل وأحيانا ساحة للمعركة كما حدث في وادي السلام في النجف خلال صيف 2004. غير أن زيارة الأولياء لا زالت تمارس بمعظم البلدان الإسلامية تحت تهديد السلفية الجهادية في ليبيا وتونس ومالي وسوريا والعراق وأفغانستان وباكستان وغيرهما. ومن بين التجليات المثيرة لهذه الرهانات السياسية، وحتى الجيوسياسية، استهلال العودة المظفرة لآيات الله الخميني إلى إيران سنة 1979 بزيارة المقبرة الكبرى لطهران، حيث يوجد اليوم قبره. كما شكل دفن صدام حسين بضريح العوجة قرب تكريت، مناسبة لزيارات مكثفة من قبل أنصاره، قبل أن يتم تدمير قبره من قبل الدواعش ما بين 2014 و2015. وفي الأخير، فإن المصير الغامض والمجهول لرفاة أسامة بن لادن المغتال من قبل القوات الخاصة الأمريكية سنة 2011، استهدف بالأساس حرمان قبره من التحول إلى مزار لأنصاره.

وفي المحصلة، اعتبرت المقابر والقبور من زاوية التاريخ الثقافي، أماكن متميزة لبناء الذاكرة الجمعية والثقافية، ومرآة لتشكيل المخيال السياسي للجماعات الدينية أو القومية في العالم الإسلامي، إذ تعد المدن المقدسة أو العتبات في المجال الشيعي، والتي تحتضن أضرحة الأئمة وأقربائهم، فضاءات لبناء الهوية الجمعية من خلال التخليد المستمر. وينطبق الأمر ذاته، إلى حد ما، على التصوف وما يتصل به من زيارات لقبور الأولياء وقبور أتباعهم. ويتعلق الأمر بمواقف احتفالية لا يمكن بأي حال الفصل بينها وبين الأبعاد الدينية والسياسية، بما أن الدين يوجد في قلب الهوية الجمعية، وبما أن الذاكرة بشكل عام، تبنى من قبل السلطة أو من قبل نقيضها. وهكذا فإن تدبير المقابر وزيارتها يساهمان في بناء الهويات الوطنية الحديثة. ومن ثم تخفي أشكال التخليد في طياتها اليوم النزاعات السياسية والاستثمارات الاقتصادية والتحولات الحضرية التي تشهدها الأماكن المقدسة الخاصة بالإسلامين السني والشيعي، كما هو حال مكة والمدينة والنجف. ويفسر هذا البعد لماذا لا تعكس القيمة الرمزية المنسوبة للقبور بمختلف درجة قداستها، الإيمان الديني فحسب؟ وأخيرا يؤكد هذا الملف على التطورات السياسية والمجتمعية للعصر الحديث، وعلى الدور المحوري للمقابر والقبور في قضايا التخليد.

ومع ذلك، فمن بين ثغرات هذا الملف المتعدد التخصصات والمجالات التي أشار إليها المشرفون عليه، نذكر عدم تمكنهم من إدراج المساهمات المتعلقة بالفعل الجنائزي في إفريقيا جنوب الصحراء والمغارب وتركيا والبلقان، والتي وعدوا بتخصيص أعداد قادمة لها. كما خلص الملف إلى أنه في الوقت الذي تمكنت فيه المجتمعات الغربية من علمنة الموت في إطار الدولة الحديثة، فإن المجتمعات الإسلامية التي تتبنى الإسلام كدين رسمي للدولة أم لا، لا زالت متمسكة بنفس الممارسات والطقوس والمعتقدات التي تخول لكل شخص مهما كان قدره الحق في الطقس الجنائزي. وتحيل أيضا الثقافة الجنائزية للمجتمعات الإسلامية المتحدرة من التجربة التاريخية بكل ديناميتها، على الطابع النسبي والمرن لمفاهيم الأرثودوكسية والأورثوبراكسية، في غياب سلطة دينية موحدة وممركزة. ومن ثم يبقى التحكم في الفعل الجنائزي رهانا ضروريا لإضفاء الشرعية على مواقف المجموعات المعنية. لكن مع ذلك يبقى للفعل الجنائزي الرسمي أو الشعبي دورا رئيسيا في رسم مرآة المجتمعات الإسلامية وفي بناء الذواكر الفردية والجمعية، عبر الاهتمام بالربط بين ذكريات الماضي السحيق ومشاكل الحاضر وانتظارات المستقبل في الدنيا والآخرة.

محمد جادور
جامعة محمد الخامس بالرباط
المغرب